الباب الثانى

دراسة وجوه البديع

الفصل التاسع: المنهج ومعيار القيمة

الفصل العاشر: السجع والفواصل ولزوم ما لا يلزم

الفصل الحادى عشر: الازدواج

الفصل الثانى عشر: الجناس وصوره

الفصل الثالث عشر: بديع النسق

الفصل الرابع عشر: الاقتباس.

الفصل الخامس عشر: المطابقة والمقابلة.

الفصل السادس عشر: ظاهرة الغموض فى الدرس البديعى

الفصل التاسع

المنهج ومعيار القيمة

إصابة المقدار أقرها الجاحظ ولم يبتدعها

منهجنا فى دراسة وجوه البديع مستمد من معيار للقيمة الأخلاقية والجمالية سماه الجاحظ (إصابة المقدار) فى كتابه البيان والتبيين ، قال :"ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به،ويفضلون إصابة المقادير ،ويذمون الخروج من التَّعْدِيل"(١) .

هذه العبارة جعلها استهلالا لباب يحتوى على مختارات من الشعر والنثر ، وهى متصلةٌ بالحكم على العمل الأدبى شعرِه ونثرِه ، معبرةٌ عن رأى جمهور من الدارسين للأعمال الأدبية المتمرسين بها رُوَايَةً ودِرَايَةً .

ولا نحسب أن أحدا يقدمه الجاحظ هذا التقديم غير الرواة العلماء الذين صحبهم فى البصرة وفى بغداد وتدارس معهم الأدب وهم كثيرون ، منهم : يونس بن حبيب ، والأصمعى ، وأبو عبيدة مَعْمر بن المثنى ، وبِشْر بن المُعْتَمِر ، وإبراهيم ابن سَيَّار النَّظَّام ، ومحمد بن يزيد المُبَرِّد وابن الأعرابى ، وأبو يعقوب الخُرَيْمِى، وسَهْل بن هارون وغيرهم .

فالتسمية (إصابة المقادير) أَقَرَّهَا ولم يَبْتَدِعْهَا ، ولا يُعْرَفُ صاحِبُهَا ، وهى صفة للعمل الأدبى الذى حاز رضا أصحابه واستحق مدحهم ، أما ما استحق ذمهم فهو ما خرج من التعديل . أى لم يستحق التزكية ، ولم يستو فى الميزان وجَارَ عن القَصْد . وهى أوصاف تمدح أدبا توفرت فيه قِيَمُ الجماعة الجمالية والأخلاقية. وتذم أدبا افتقد قِيَمِ الجماعة الجمالية والأخلاقية .

الصواب والإصابة والمقدار

والإصابة فسرها الراغب الأصفهانى فى المفردات فى غريب القرآن بما يُغْنِى عن غَيْرِهِ ، قال:" الصَّوَابُ يُقَالُ على وجهين ، أحدهما : باعتبار الشىء فى نفسه

فيقال هذا صواب إذا كان فى نفسه محمودا ومرضيا بحسب مقتضى العقل والشَّرْع ، نحو ذلك : تَحَرِّى العَدْلِ صَوَابٌ ، والكَرَمُ صَوَابٌ.

والثانى : يقال باعتبار القاصِدِ إذا أدرك المقصود بحسب ما يقصِدُه فيقال أصاب كذا إذا وجد ما طلب كقولك أصابه السهم ، وذلك على أضرب ، الأول : أن يقصد ما يَحْسُنُ قَصْدُه فيفعله ، وذلك هو الصواب التام المحمود به الانسان. والثانى : أن يَقْصِد ما يَحْسُن فِعْلُه فيتأتى منه غيره لتقديره بعد اجتهاده أنه صواب وذلك هو المراد بقوله ,,صلى الله عليه وسلم,, :" مَنْ اجتهدَ فأصابَ فَلَهُ أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أَجْرٌ."

والثالث : أن يقصد صوابا فيأتى منه خَطَأٌ لِعَارِضٍ من خارج نحو من يقصد رَمْىَ صَيْدٍ فأصاب إنسانا فهو معذور.

والرابع : أن يقصد ما يَقْبُحُ فِعْلُه ولكن يقع منه خلاف ما يقصده فيقال أخطأ فى قَصْدِهِ وأَصَابَ الذى قَصَدَه أى وجده.

والصَّوْبُ : الإِصَابَةُ يقال صابَهُ وأَصَابَهُ ، وجُعِلَ الصَّوْبُ لنزول المطر إذا كان بِقَدْرِ ما يَنْفَع. وإلى هذا القدر من المطر أشار بقوله (وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَر) المؤمنون ١٨.

قال الشاعر :

فَسَقَى دِيَارَكِ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى

وقال بعضهم : الإصابة فى الخير اعتبارا بالصَّوْب أى المطر ، وفى الشر اعتبارا بِإِصَابَةِ السَّهْمِ ، وكلاهما يرجِعَانِ إلى أصلٍ". (٢)

وسواء أكانت الإصابة من الصواب أى المطر على قدر الحاجة ، أم من إصابة السهم الهدف فالحكمُ متصلٌ بالقيمةِ العربيةِ الإسلاميةِ وهذا متسق مع قول الراغب إن الحكم بالصواب المحمود المرضى بحسب مقتضى العقل والشرع. ومعنى هذا أن نظرية الأوساط الأخلاقية الأرسطية (الفَضِيلَةُ وَسَطٌ بَيْنَ مَذْمُومَيْنِ:

إِفْرَاطٌ وتَفْرِيطٌ) قد تتسق وقد لا تتسق مع هذه القيمة العربية الإسلامية .
ونرجئُ المقايسةَ بين النظريتين إلى أنْ ننتهىَ من الحديث عن المقدار .

وجدنا أن دِلَالَةَ الإصابة متوقفة على ما تُضَافُ إليه ، والمقدارُ من القدر والتقدير أن تبيين كمية الشيء. والقُدْرَةُ إذا وُصِفَ بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن مِنْ فِعْلِ شيءٍ ما،وإذا وُصِفَ بها اللهُ تعالى فهى نَفْيُ العَجْزِ عنه،ومُحَالٌ أنْ يُوصَفَ غيرُ اللهِ بالقدرة المطلقة معنىً وإن أُطْلِقَ عليه لفظا ".(٣)

إصابة المقادير خلاصة الأحكام الأدبية التقويمية

معنى هذا أنَّ آفاقَ القِيمَةِ غيرُ محدودةٍ بزمان أو مكان،والشرطُ تجسدها فى شخص تشهد أفعاله أنه بَطَلٌ فى جانب من جوانب القيمة ويَنْدُرُ أنْ تجتمعَ فيه غيرُ صِفَةٍ . وبَيْتُ أبى تمام فى مَدْحِ أحمد بن المعتصم وَلِيِّ العَهْدِ يعالج هذه القضية ، قال :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقد أراد أن يمدحه باكتمال جوانب الفضل فى شخصه ، وهذا يندر حدوثه ، ولكنه لازم فيمن يَلِى أَمْرَ الجَمَاعَةِ .

- فإصابةُ المقدارِ فى النظمِ هى حَقُّ المعنى أى حَقِيقَتُه التى تُفَسِّرُها تراكيبه وصوره ووجوه بديعه ويوضحها السياق طبقا لمبدأ موافقة الكلام لمقتضى الحال .
- وإصابة المقدار فى النفقةِ الوفاءُ بالحاجة دون تقتير أو إسراف .
- وإصابة المقدار فى الطعام موافقته لِسِنِّ الآكلين،ولطبيعة الجو من حرارة وبرودة،ولطبيعة عمل الآكلين وظروفهم الصحية ووقت الطعام .
- وإصابة المقدار فى زينة الرجل موافقتها لمكانته وسنه وعمله ..
- وإصابة المقدار فى زينة المرأة فى بيتها تختلفُ عنها خارج بيتها،كما تختلف عن إصابة المقدار فى زينة الفتاة .

• وإصابةُ المِقْدَارِ فى الجِهَادِ حين يَكُونُ فَرْضَ عَيْنٍ غيرُها حين يكون فَرْضَ كِفَايةٍ .

معنى هذا أن مجالات الإصابة أى استحقاق المدح كثيرةٌ مُتَنَوِّعَةٌ متجددة تنوع وتجدد الحياة ، وأنَّ صاحِبَ الحُكْمِ بالإصابة هو الجمهور ، وأن هذا الحكمَ تقويمِيٌّ عربيٌّ إيمانِيٌّ . ودَليلُنا على عروبة القِيَمِ أن الإصابة مأخوذة من التطبيق بشهادة الخليل بن أحمد والأصمعى والجاحظ وابن المعتز الذين أرجعوا المسألة إلى قول الشاعر :

فَلَمَّا أَنْ بَدَا القَعْقَاعُ لَجَّتْ — عَلَى شَرَكٍ تُنَاقِلُهُ نِقَالاَ
تَعَاوَرْنَ الحَدِيثَ وَطَبَّقْنَهُ — كَمَا طَبَّقْتَ بِالنَّعْلِ المِثَالاَ

وقالوا : هذا هو التطبيق بمعنى إصابة الكلام الغَرَضَ المَسُوقَ له ، أخذوا هذا الحكم من قول الشاعر إن الناقة قد هجمت على القَعْقَاعِ – الطريق الذى كان يأخذ من اليمامة إلى البحرين فى الجاهلية – ولم تتردد مُتَحَيِّرَةً بين الطرق المتوازية والمتعامدة مع القعقاع والتى تشكل شَرَكًا يَهْلِكُ مَنْ يقع فيه ، وقطعت القعقاع بثقة تنقل يَدًا ورِجْلا وتضع اليد والرجل الأُخْرَيَيْنِ مكانَهما : النِّسْوَةُ فى الهَوْدَجِ يقطعن مَلَلَ الطريق بحديثهن والناقة تقطعه بخطواتها المنتظمة الواثقة بدليل إصابتها فى رفع يد ورجل ووضع اليد والرجل الأُخْرَيين فى نفس المكانين اللذين رفعت منهما قائمتيها.

والعلاقة بين (لجت الناقة على شَرَك) وبين تَحَاوُرِ النِّسْوَةِ الحديث أنهن آمنات لا يعتريهن الخوف أن تضل الناقة الطريق .

ودليلنا على أن الحكم بإصابة المقدار إيمانى أن الحكمة أُثِرَتْ عن الهُدَاةِ ولم تُؤْثَر عن الملحدين أو أصحاب الشهوات ؛ وأن مادة (ق د ر) وردت فى القرآن الكريم كثيرا بهيئات مختلفة نختار منها ومِنَ السُّنَّةِ ما يَدُلُّ على أن هذا الحكم التقويمى إيمانِيٌّ .

صاحبُ المِقْدَارِ الخالقُ سبحانه وتعالى :(الذى خلق فَسَوّى والذى قَدَّرَ فهدى) الأعلى ٢،٣.

قال الزمخشرى فى تفسير الآية :"قَدَّرَ لكل حيوان ما يُصْلِحُه ، فَهَدَاهُ إليه وعرَّفَه وَجْهَ الانتفاع به . وهدايات الله للإنسان إلى ما لا يُحَدُّ من مصالحه وما لا يُحْصَرُ مِنْ حَوَائِجه فى أغذيته وأدويته وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض بابٌ واسعٌ ... لا يحيط به وَصْفُ وَاصِفٍ."(٤)

وهو القائل سبحانه : (إنّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قد جعل لكل شىءقَدْرًا) الطلاق٣ .

قال الزمخشرى : بَالِغُ أَمْرِه : أى يبلغ ما يريد لايفوته مُرَادٌ ولا يُعْجِزُهُ مطلوب . قَدْرًا : تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن كل شىءمن الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل . روى أن ناسا قالوا : قد عرفنا عِدَّةَ ذَوَاتِ الأقراء فما عدة اللائى لم يَحِضْن ؟ فنزلت ...(٥)

وصاحب المقدار (له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء وَيَقْدِرُ إنه بكل شىءعليم) الشورى١٢. قال الزمخشرى :" وقرىء يُقَدِّرُ ...فإذا علم أن الغِنَى خَيْرٌ للعبد أغناه وإلا أفقره "(٦) ونضيف أن الرزق أعم من المال الذى يترتب على وجوده الغِنَى وعلى نقصه الفَقْر ، فمن الرزق الذرية الصالحة والعافية والفضل أى الموهبة فى الصوت ، أو فى الشعر ، ومن الرزق حُبُّ الناس وهذه كُلُّهَا وغيرُها أَوْجُهٌ للرزق يوزعها الله على الناس كيف يشاء ويبسط أويقبض منها ما يشاء لمن يشاء .

وهو القائل : (تبارك الذى نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ ليكون للعالَمِينَ نَذِيرًا الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ولم يتخذْ وَلَدًا ولم يكن له شَرِيكٌ فى المُلْكِ وخلق كُلَّ شىءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .) الفرقان ٢،١ . قال الزمخشرى فى تفسير محل الشاهد : قلت : المعنى أنه أحدث كل شىء إحداثا مُرَاعًى فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح له ، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المُقَدَّرِ المُسَوَّى الذى ترا ه

فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة فى بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجِبِلَّةِ المُسْتَوِيَةِ المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقة لما قدر له غير مُتَجَافٍ عنه ، أو سَمَّى إِحْدَاثَ اللهِ خَلْقًا لأنه لا يحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت .. فكأنه قيل : وأوجد كل شىء فقدره فى إيجاده لم يُوجِدْهُ مُتَفَاوِتًا . وقيل : فجعل له غايةً ومُنْتَهًى ، ومعناه : فقدره للبقاء إلى أَمَدٍ مَعْلُومٍ "(٧) .

وصاحب المقدار هو ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وما تَغِيضُ الأَرْحَامُ وما تَزْدَادُ وكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد ٨. قال الزمخشرى: (ما) فى (تحمل) و(ماتغيض) و(ما تزداد) إما موصولة وإما مصدرية ؛ فإن كانت موصولة فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال من ذُكُورَةٍ وأُنُوثَةٍ وتَمَامٍ وخِدَاجٍ(٨) وحُسْنٍ وقُبْحٍ وطُولٍ وقِصَرٍ وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمُتَرَقَّبَة .

ويعلم ما تَغِيضُه الأَرْحَامُ : أى تُنْقِصُه ، ومنه قوله تعالى (وغِيضَ الماءُ) وما تزداد : أى تأخذه زائدا ؛ ومما تنقصه الأرحام وتزداده عَدَدُ الولد فإنها تشتمل على واحد وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة ، ومنه جَسَدُ الوَلَد فإنه يكون تاما ومُخَدَّجًا . ومنه وِلَادَتُه فإنها أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة وإلى أَرْبَع عن الشافعى ، وإلى خَمْس عند مالك .

وقيل إن الضَّحَّاكَ وُلِدَ لسنتين ، وهَرِم بن حِبَّان بقى فى بطن أمه أَرْبَعَ سنين ولذلك قيل هَرِمًا . ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

وإن كانت (ما) مصدرية فالمعنى : أنه يعلم حَمْلَ كُلِّ أُنْثَى ويعلم غَيْضَ الأرحام وازْدِيَادَها لا يَخْفَى عليه شىءٌ من ذلك ومن أَوْقَاتِهِ وأَحْوَالِهِ ويَعْضُدُهُ قَوْلُ الحسن : الغَيْضُوضَةُ أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر . ومنه الغيض الذى يكون سَقَطًا لغَيْرِ تمام والازدياد ما وُلِدَ لتمام.

بمقدار : بِقَدْرٍ وأحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾القمر ٤٩ .(٩)

يقول الراغب الأصفهانى : ... فتقديرُ اللهِ الأشياءَ على وجهين ، أحدُهما : بإعطاءِ القُدرةِ ، والثانى بأن يجعلها على مِقْدَارٍ مخصوص وَوَجْهٍ مخصوص حسبما اقتضت الحكمة ، وذلك أنَّ فِعْلَ اللهِ تعالى ضربان : ضَرْبٌ أوْجَدَهُ بالفعلِ، ومعنى إيجاده بالفعل أن أبْدَعَهُ كاملا دفعة لا تعتريه الزيادةُ أو النقصان ، إلى أن يشاء أن يُفْنِيه أو يُبَدِّلَه كالسموات وما فيها . ومنها ماجَعَلَ أُصُولَهُ موجودةً بالفعل وأجزاءَه بالقوة وقَدَّرَهُ على وَجْهٍ لا يتأتى منه غيرُ ما قَدَّرَهُ فيه كتقديره فى النَّوَاةِ أن ينبت منها النَّخْلُ دُونَ التفاح والزيتون .

فتقدير الله على وجهين ، أحدهما بالحكم منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا ، إما على سبيل الوُجُوبِ وإما على سبيل الإمْكَانِ . وعلى ذلك قوله :(قد جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) الطلاق ٣ . والثانى بإعطاء القدرة عليه (١٠).

نستخلص مما تقدم عدة حقائق :

• أن المدح بإصابة المقادير ، والذم بالخروج من التعديل خُلَاصَةُ الأحكام الأدبية التقويمية صاغَهَا جَمْعٌ من شُيُوخِ الأدب أهْلِ الرِّوَايَةِ والدِّرَايَةِ وهم أصحاب المنهج البديعى فى درس الأدب .

• وأن الجاحظ أقَرَّ هذه الصياغَةَ ونقل إلينا مَضْمُونَها فى بعض أبواب كتابه البيان والتبيين ، وهى تتضمن أن الأدبَ أديان : أدَبٌ يستوى فى ميزان القيم الجمالية والأخلاقية للجماعة ، وأدبٌ لا يستوى فى مِيزَانِهم ، أدبٌ يستحق تزكية القوم وأدبٌ لا يستحقها ، أدبٌ فيه قَصْدُ سَبِيلِ الجَمَاعَةِ وأدبٌ جَارَ عن قَصْد سبيل الجماعة .

• ولا يُرَدُّ الاختلافُ بين الأدبين إلى تَوَفُّرِ الموهبة وجَوْدَةِ الفَهْم واكتمال أسباب الأديب فى اللغة والثقافة والتجارب أو عدم ذلك كله .° وإنما العَاقِلُ مِنْ عَقْلِهِ فى إرشاد ومِنْ رَأْيِهِ فى إمْدَاد فقولُه سَدِيد ، وفِعْلُهُ حَمِيد . والجاهل من جَهْلِه فى إغْوَاءٍ ومِنْ هَوَاهُ فى إغْرَاءٍ فقوله سَقِيم وفِعْلُه ذَمِيم . فأما الدهاءُ والمكرُ فهو مَذْمُومٌ لأنَّ صاحِبَهُ صَرَفَ فَضْلَ عَقْلِهِ إلى الشَّر ، ولو صَرَفَهُ إلى الخير لكان مَحْمُودًا .

وقد ذكر المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَة عُمَرَ بن الخطاب . فقال : كان والله أفْضَلُ مِنْ أنْ يَخْدَع وأعْقَلُ مِنْ أنْ يُخْدَع ، وقال : لَسْتُ بِخِبٍّ ولا يَخْدَعني الخِبُّ.(١١)

فالقضية في إصابة المقدار هي قضية بَصِيرَةٍ تُدْرِكُ العلاقةَ بين النافع للناس في الدنيا والدين معا ، وهي بإدْرَاكِ الأمانة التي أبَتْ السموات والأرضُ والجِبَالُ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأشْفَقْنَ منها وحملها الإنسانُ ، أي الطاعة ،وهذا الإدراك من مقومات الأدب والأديب ودارس الأدب ، فالأدب في حقيقته دعوة ؛ والفَرْقُ جَسِيمٌ خَطِيرٌ بين أن تكونَ الدعوةُ إلى الصَّلَاحِ والإصْلَاحِ في الدنيا والآخرة ، وأن تكون الدعوة للفساد والإفساد في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة .

والأمرُ مُتَّصِلٌ بإدراك الأديب ودارس الأدب أن الموهبةَ الأدبيةَ بمظهريها الإبداعي والبلاغي فَضْلٌ رَفَعَ اللهُ به أصْحَابَهُ دَرَجَةً ، وهي في الوَقْتِ عَيْنِهِ تَكْلِيفٌ أقْدَرَهُمَا اللهُ عليه . معنى هذا أن الأديبَ المُنْشِئَ ودَارِسَ الأدب مُكلفان بالقيام على وِلَايَةِ الأدب ، وولايتُهُمَا أشَدُّ خَطَرًا من ولاية الحِسْبَة لأنهما يقومان على حِرَاسَةِ القيم الجمالية والأخلاقية،ومَنَاطُ هذه القيم القرآنُ والسنةُ والمُثُلُ العُلَا فيهما التي تجسدت في بطولات الأبطال في الجِهَادِ والسَّمَاحَةِ والبِرِّ والكَرَمِ والإيثار والعِفَة ويَجْمَعُها تَقْوَى الله .

أما صلة هذه الأمور بصنعة الأدب فالصورة الأدبية رابطة بين الخيال والإدراك . والخيال حركة يسببها الإحساس ، والاحساس ليس ماديا ولكنه معنى من المعاني فلا غرابَةَ في أن نقول إنَّ الإصابَةَ مسألةٌ إيمانيةٌ عَقْلِيةٌ وِجْدَانِيَّةٌ.ألستَ معي أن ابنَ الرُّومِيَّ أرادَ هذه المعاني بقوله :

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مُورِدٍ عَجَزَتْ مُحَالَتُهُ عَنِ الإصْدَارِ
والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّبِيبَ. وإنَّمَا خَطَأُ الطَّبِيبِ إصَابَةُ المِقْدَارِ

عَدَّ الأستاذ الدكتور شوقي ضيف (إصابة المقدار) وجها من وجوه البديع ، وقد رأيت أننا عددنا (إصابة المقدار) مِعْيَارًا للقيمة الجمالية والأخلاقية ، قال

الدكتور شوقى ضيف :".. وتنبه (الجاحظ) لما سماه البلاغيون بعده باسم الاحتراس، وقد سماه إصابة المقدار ، يقول :(يقول طرفه فى المقدار وإصابته :

فَسَقَى دِيَارَكِ - غَيْرَ مُفْسِدِهَا - صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تُهْمِى

طلب الغيث على قَدْرِ الحاجة ، لأن الفاضلَ ضَارٌّ)".(١٢)

إثبات أن إصابة المقدار معيار للقيمة

وقد رأينا من واجبنا استعراض الاختيارات التى جعل الجاحظ (إصابة المقادير) عنوانا لها لكى نثبت ما ذهبنا إليه أن (إصابة المقدار) معيار للقيم الجمالية والأخلاقية وليس وَجْهًا خاصا مِنْ وُجُوهِ البديع هو الاحتراس كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف :(١٣)

أول هذه الشواهد قول الجاحظ :"قال جعفر بن سليمان : ليس طِيبُ الطَّعَامِ بكثرة الإنفاق وجودة التوابل ، وإنما الشَّأْنُ فى إصابة القَدْر. وقال طارق بن أثال الطائى :

مَا إنْ يَزَالُ بِبَغْدَادٍ يُزَاحِمُنَا ... عَلَى البَرَاذِينِ أَشْبَاهُ البَرَاذِينِ

أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَمْوَالاً وَمَنْزِلَةً ... مِنَ المُلُوكِ بِلاَ عَقْلٍ ولا دِينِ

مَاشِئْتَ مِنْ بَغْلَةٍ سَفْوَاءَ نَاجِيَةٍ ... ومِنْ أُتَاتٍ وقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ " .

فجعفر بن سليمان بن على العباسى ابن عم الخليفتين السفاح والمنصور تحدث عن إصابة القَدْرِ فى الطعام وأثرها فى مناسبة الطعام للطاعم فرأى أن هذا الأمر لا صلة له بكثرة الإنفاق وجودة التوابل ، هذا ما صرح به أما ما تضمنته العبارة فأمور هى موافقة الطعام لِسِنِّ الطاعم ، وحالته الصحية ،ولعمله الذى يزاوله ويبذل فيه طاقته ، وموافقته لما يألَفُه الطاعم ويشتهيه ، وتنوع الطعام بحيث يفى بالحاجات التى يتطلبها الجسم ولا تتكرر فيه الأصناف المتشابهة . والأمر لا يقتصر على مواد الطعام بل يمتد إلى طريقة إعداده ، وطريقة تقديمه ، والمُشَارِك فى الطعام فقد كانت عادتهم أن يلتمسوا أكيلا . فإصابةُ المِقْدَارِ شَيْءٌ مُرَكَّبٌ .

أما أبيات طارق بن أُثَال الطائى الشاعر البغدادى فلا صلة لها بالطعام ولاباين عم السفاح والمنصور ، فهى تتحدث عن المُفَارَقَةِ الكبيرة التى يُعَايِشُها الشاعر فى بغداد، فالمفروض والمألوف والمنطقى أن يكـون أَعْوَانُ السلطان هـم أَهْلُ الفَضْـلِ فى أحسابهم وأنسابهم وعِلْمِهِم ودينهم وأدبهم ، ولكن المقابل لكل هذه الأمـور هـو الذى يلمسه فالاصابة تُعْرَفُ بِضِدِّهَا .

والنص الثانى فى هذا الباب رواه بقوله :" وأنشدنى بعض الشعراء :

رَأَتْ رَجُلاً أَوْدَى السِّفَارُ بِجِسْمِهِ فَلَمْ يَبْـقَ إلا مَـنْطِقٌ وَجَـنَاجِنُ
إِذَا حَسَرَتْ عَنْه العِمَامَةَ رَاعَـهَا جَمِيلُ الحُـفُوفِ أَغْفَلَتْهُ الدَّوَاهِـنُ
فِإنْ أَكُ مَعْرُوقَ العِظَــامِ فِإنَّـنِى إذا ما وَزَنْتَ القَوْمَ بالقَوْمِ وَازِنُ"

الشِّعْرُ لكُثَيِّر عَزَّة ،كما فـى الأغـانى ، وقـول الجـاحظ (وأنشـدنى بعـض الشعراء) مُؤَكِّدٌ ما ذهبنا إليه فى صدر حديثنا عن المنهج ومعيار القيمة أن إصابـة المقدار أقَرَّهَا الجاحظ ولـم يبتدعها وأن العبـارة معيـار للقيمة صدرعن جمهـور الدارسين للأعمال الأدبية المتمرسين بها رِوَايَةً ودِرَايَةً ، فالشاعر الذى لم يصـرح باسمه تدارس مع الجاحظ هذا المعيار ودلل علـى وجوده فـى التراث بشـاهد مـن شعر كُثَيِّر عزة . والمعنى فى الأبيات أن الرجـال لا تـوزن فـى الميزان بمظـاهر النعمة على الجسـم بامتلائـه وارتدائـه فـاخِرَ الثيـاب وزينتـه بفـاخر الدُّهْن وطِيـب العِطْر ، وإنما الرجولة الحقة أن يكون صَاحِبُهَا يطلب العُلاَ فهو على سفر دائمـا ، وكثرة أسفاره جعلته نحيلا تبرز عظـام صـدره ، مُغْبَرَّ الرأس ، مَعْرُوقَ العظـام قليل اللحم ، لا عَهْدَ لجسمه بالدُّهْن ، ولكنه صاحب بَيَانٍ وعَقْلٍ رَاجِحٍ وجُرْأَةٍ فـى الحق وهى أمـور ترفعـه فـى ميزان الرجـال وتجعـل ميزانـه يرجـح ميزان ذوى الفضل والبيان والأنساب والحكمة . فالشاعر هنا معنـاه فـى معنـى الرجولـة وهـو معيار للقيمة خلقية وجمالية.

نستطيع أن نتتبع شواهد هذا البـاب لندلـل علـى أننـا بـإزاء معيـار للقيمـة فـى الطعام ، وفيما ينبغى أن يكون عليه صاحب السلطان من علم وفضل ودين وذكاء،

وما ينبغى أن يكون عليه الرجال من بُعْد الهِمَّة ورَجَاحَةِ العقل والبيان وأن زينة الرجل بالدهن والطيب وفاخر الثياب وامتلاء الجسم ليست من الإصابة فى معنى الرجولة . أما الشاهد فى بيت طَرَفَه بن العبد فقد أورده الجاحظ فى هذا الباب لدلالته على الإصابة فى توصيل المعنى دون زيادة . وهذا ما عبر عنه الجاحظ بحديثه عن (حَقِّ المعنى) أى حقيقته حين عَقَّبَ على قول صاحب الماء للأعرابى الذى شكا إليه مَنْ مَنعُوه من أخذ حاجته ، قال الأعربى :(حُلَّتْ رِكَابِى ، وخُرِّقَتْ ثِيَابِى ، وضُرِّبَتْ صِحَابِى) فقال صاحب الماء : أَوَ سَجْعٌ أيضا ! فقال الأعرابى : فكيف أقول .

مناقشة رأى الدكتور شوقى ضيف:

ولم يدرك الدكتور شوقى ضيف أن عنوان هذا الباب (وباب آخر) أى أنه عطف هذا الباب على الذى قبله (١٤) ، وجاءت هذه العبارة فى أوله :" وباب منه آخر.ووصفوا كلامهم فى أشعارهم فجعلوها كبُرُودِ العَصْب ، وكالحلل والمعاطف، والدِّيبَاجِ والوَشْى ، وأشباه ذلك ." وهو يحيل أيضا على باب قبله عنوانه :"باب شعر وغير ذلك من الكلام مما يدخل فى باب الخُطَب :(١٥)

وقد آثرنا أن نذكر لك من هذا الباب شاهدين ، أولهما دليل على أن الإصابة غير متوفرة ، وثانيهما دليل على أن الإصابة متحققة . قال أبو عثمان :

" وقال أبو العباس الأعمى (١٦) :

إذا وَصَفَ الإسْلامَ أَحْسَنَ وَصْفَهُ ... بِفِيهِ ، وَيأْبَى قَلْبُهُ ويُهَاجِرُه

وإنْ قَامَ قَالَ الحَقَّ ما دَامَ قَائِمًا ... تَقِىُّ اللِّسَانِ كَافِرٌ بَعْدُ سَائِرُه

فإصابة المقدار ، كما تشهد نصوص هذه الأبواب وغيرها ؛ فى اتساق الفعل مع القول وهم يسخرون ممن يُنَاقِضُ فِعْلُهُ قولَه فهذا شاهد على افتقاد الإصابة .

والشاهد على تحقق الإصابة (١٧) :" وقال قيس بن عاصم المِنْقَرِى (١٨) يذكر ما فى بنى مِنْقَرٍ من الخطابة :

إنِّى امْرُؤٌ لا يَعْتَرِى خُلُقِى ... دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أَفَنُ

مِنْ مِنْقَرٍ فى بَيْتِ مَكْرُمَةٍ   والأَصْلُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الغُصْنُ
خُطَبَاءُ حين يَقُومُ قَائِلُهُم   بِيضُ الوُجُوهِ مَصَاقِعُ لُسْنُ
لايَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمُ   وَهُمْ لِحِفْظِ جِوَارِهم فُطْنُ

والنص يفخر فيه هذا السيد الماجد أنه بعيد عن الأخلاق الجاهلية ويصفها أنها دَنَس لأن صاحبها مَأفُون ، ويفخر بأن بيته معروف بحُسْنِ الخُلقِ ورَجَاحَةِ العَقْلِ فهو قد ورث هذه الصفات عن قومه وعُرِفَ بها أقرانُه مِن قبيلته ، فهم أهل خَطَابَةٍ ولَسَنٍ . والخطابة تعنى السيادة فلا يعتلى منبر الجماعة إلا سيد ، والخطيب لاينطق إلا بالحق ولا يدعو إلا إلى فضيلة وهذه صفات السادة من بنى مِنْقَر : أُصُولُهم كريمة وألسنتهم فصيحة يتشاغلون بالأعمال عن استكشاف عيب جارهم ويسهرون على حفظ حقوقه .

وفى هذه الأبواب تحدث الجاحظ عن القِرَان الذى عُرِفَ مِنْ بعده باسم التَّلاؤُم فتحدث عن اقتران الحروف بقولهم إن " الجيم لاتقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير . والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير ... وأن هذا الباب كبير وقد يُكْتَفَى بذكر القليل حتى يُستدل به على الغاية التى إليها يجرى ".(١٩)

وقال :" وأجود الشعر ما رَأَيْتَهُ مُتَلاَحِمَ الأجزاء ، سَهْلَ المَخْرَجِ ، فتعلم بذلك أنه قد أُفْرِغَ إفراغا واحدا ، وسُبِكَ سَبْكا واحدا ، فهل يجرى على اللسان كما يجرى الدِّهَان ... وكذلك حروف الكلام ، وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة مُلْسَا ولَيِّنَةَ المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافِرَة مُسْتكرهة تشق على اللسان وتَكُدُّه ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورَطْبَةً مُوَاتِيَة ، سَلِسَة النظام ، خفيفةَ على اللسان ، حتى كأن البيتَ بأسْرِهِ كلمةٌ واحدةٌ ، وكأن الكلمةَ حرفٌ واحد".(٢٠) فهو شرح القِرَان أى التلاؤم بنقيضه التنافر ، وبدلالة القِرَان على جودة طبع الأديب وحُسن اكتِسَابه أى اكتمال أسبابه الفنية .

وذكر الجاحظ فى غير هذه الأبواب الاقتصاد ، قال : (وفى الاقتصاد بلاغ) وقال مُؤَوِّلا الآيات التى تذم الشعر والشعراء إنها تَذُم فيهم "تَكَلُّفَ الصَّنْعَةَ والخُرُوجَ إلى المُبَاهَاة ، والتَّشَاغُلَ عن كثيرٍ من الطاعة وقول الزور والفخر بالكذب "(٢١).

فإصابة المقدار فى تصور الجاحظ مذهب فَنِّىٌّ سَلَفِىٌّ ، تمتد بعض جذوره عند بعض الجاهليين المتألهين ، الهُدَاة وهوفى اللفظ يوافق ما دعا إليه أن تكون الألفاظ ليست مُبْتَذلة سُوقية ، وليست مُتَوَعِّرَةً وَحْشِيَّةً ، وأن يكون اللفظُ مُوافِقًا المعنى وكأنما خُلِقَ أحدُهما ليقترن به صاحبه . يدل على ذلك ما وجدناه من نفيه استعمال النص الأدبى على الترادف بحيث يجوز تبديل لفظ بآخر .

وهوفى الخطابة موافقة الكلام لمقتضى الحال ، هوفى معانى الشعر يعنى به ما عُرِفَ بمذهب المقتصدين حيث يَعْدِلُ الشاعر ويُنْصِفُ وتمتد عدالته وإنصافه فى كل أَغْرَاضِهِ ومعانيه حتى تصل إلى أعدائه . ويُصِيبُ فى صُوَرِه فلا يغلوولا يُقَصِّر، ويوفق إلى تأدية المعنى فى صورة خيالية وتعبيرية تتحقق فيها السلامة وتنتج عنها المتعة الفنية .

يتصل بهذا قوله إنَّ أَجْدَى المَدَائِحِ وأَنْفَعَهَا للمادِحِ والممدوح أن تكون موافِقَة لحال الممدوح وأن يكون قولُ المادح صِدْقًا . وقد رأيناه يُرَدُّ إلى هذا التصور موقِفُهُ من البديع؛فمن البديع مستحسن ومنه مستهجن ، وسنرى فى حديثنا عن السجع أن المكروهَ منه ما أَبْطَلَ حَقًّا وما سَوَّغَ بَاطِلاً . فإصابة المقدار إذن ليست بابا من أبواب البديع ولكنها مِعْيَارٌ للقيمة الفنية والجمالية يُحتكم إليه فى درس البديع خاصة والبلاغة عامة .

وإصابة المقدار بهذه المواصفات ليست بعيدة عن المعانى الشعرية التى اختارها الجاحظ واستعرضها فى كتابه البيان والتبيين ، وليست إصابة المقدار غريبة عن النصوص التى فَتَّشَ عنها المبرد فى التراث وفى كلام المحدثين

واستعرضها بين دفتى كتابه(الكامل فى اللغة والأدب) فالوصف بالكمال والوصف بإصابة المقدار قريب من قريب .

وغنى عن البيان أن نظرية الأوساط الأخلاقية الأرسطية بعيدة عن مفهوم إصابة المقدار؛ لأن الإصابة فى الطعام والإصابة فى الجهاد والإصابة فى الكَرَم ليست هى الوَسَطية . والوسطية لا شأن لها بالبيان وعلاماته ولا شأن لها بتقدير رُدُودِ الأَفْعَالِ المتفاوِتَةِ على الناس إزاء الفِعْلِ الواحد ودلالة كل رد فعل عند صاحبه على بناء متكامل متماسك للقيم فى شخصيته . ونجد أن أبا حَيَّان التوحيدى أجاد شرح ما عَنَاهُ الجاحظ بإصابة المقدار فى كتابه(البصائر والذخائر)(٢٢) . وفى المقابستين الحادية عشرة والثانية عشرة من كتابه(المقابسات) أما ابن الأثير فقد استمد معياره الفنى من نظرية الأوساط الأخلاقية الأرسطية . وانظر فى ذلك الفصل الخامس والعشرين(فى الاقتصاد والتفريط والإفراط)من الجزء الثانى من كتابه (المثل السائر).

إن أفضلَ ما قدمه الجاحظ فى تنظير إصابة المقدار رأيُه فى العلاقة بين اللفظ والمعنى أنها :

- **علاقة تلازمية** فى الوجود ؛ كالزوح والجسد لا حياة بدون اجتماعهما.
- وأنها **علاقة توافقية** ، فالألفاظ على أقدار المعانى كثيرها لكثيرها ،وقليلها لقليلها ، وجليلها لجليلها ، وسخيفها لسخيفها .
- وأنها **روحية بمثابة الحق والحظ والنصيب** ، هذا ما قاله عن حق المعنى أى حقيقة المعنى عند شرحه شكوى الأعرابى لعامل الماء : (حُلَّتْ رِكَابِى ، وخُرِّقَتْ ثِيَابِى، وضُرِّبَتْ صِحَابِى .) ظَنَّ صاحِبُ الماء أَنَّ الأَعْرَابِىَّ كاذِبٌ لأنه تعمد السجع ، فقال : أَوَسَجْعٌ أيضا . فقال الأعرابى : فكيف أقول ؟

رأى الجاحظ أنه عَبَّر عن حَقِّ معناه ؛ لأن (حُلَّتْ) لا تساويها (مُنِعَتْ) و(رِكَابِى) لاتؤدى معناها (نُوقِى أوجِمَالِى أوبُعْرَانِى أوصِرْمَتِى، فكيف يدع الرِّكَابَ إلى غيرِ الرِّكَابِ) فنَفَى وُجُودَ ترادُفٍ داخِلَ النَّصِّ الأَدَبِىِّ . كما أشار إلى

دِلَالَة الترتيب فى النَّظْمِ على المعنى ، ودِلَالة التراكيب اللغوية داخل النص فى تحديد المعنى .

سَدَّ الجاحِظُ – بهذا التنظير البديعى لإصابة المقدار – البابَ على المتأثرين بالمنطق الأرسطى الدّاعِينَ إلى الفصل بين الشكل والمضمون، المُتَوَهِّمِينَ أن اللفظ يأتى من وادٍ والمعنى يأتى مِنْ وَادٍ آخر وأنهما كالإناء وما يوضع فيه . وتَحْدِيدُهُ أن العلاقة بينهما تلازمية كالعلاقة بين الروح والجسد جعل من غير المقبول وَصْفَ لون من البديع أنه لفظى ووصف لون آخر أنه معنوى . كما جعل حديث الدكتور مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) فى سياق حديثه عن أبى هلال العسكرى وكتابه الصناعتين حين وصف الدكتور مندور البديع باللفظية والسطحية وإماتة الشعور والإحساس – جعل تنظيرُ الجاحظ إصابةَ المقدارِ حديثَ الدكتور مندور صادرا عن دِلَالات الجاهلية وفَسَادِ الولاء .